... وعلى الشفوع غرناطة!

قصة

بقلم احمد سويد

مازالت اناملي التي امسك بها القلم مغموسة بدمه الطري دمه الذي سال عند الاصيل ، على الارض الطيبة التي كان يحتضنها ، ويتشبث بها كأنه يريد الا تفلت ابدا من بين ذراعيه :

كانت يدي تسد جرحه المفتوح ، وتجمع حواشيه المزقة وتحاول ، ببله ويأس ، ان تصد عنه الموت ، ولكن حياته كانت تتسرب من بين اناملي المرتعشة حارة بطيئة ، فأحس بها ، وهي تسيل ، لتختلط الى الابد بتراب امنا الجزائر .

.... وكانت عيناه السوداوان الحالمتان توزعان بسمتهما الاسيانة علي وعلى رشاشه المنطرح عند قدميه كالكلب الوفي ، وظلت هذه البسمة تروي لي بصمت ، ملاحم بطولته ، الى ان انطفأت الجذوة في عينيه ، وجمد على اناملي دمه الشهيد .

لقد مات قدور ، صديقنا المشترك ، ياعزيزي ، واحد اركان الثالوث الذي كنا نكونه في جامعة « السوربون » ، وقدر لنا ، انت وانا ، ان نتقاسم لوعة الفجيعة فيه . انت الذي ارادت لك القيادة ان تضرب في ارض الله ، لتحمل كلمة الجزائر الى كل زاوية من زواياها ، وتفتح عيون كل شعب حر ، على اماثيل كفاحها البطولي ، ومخازي عدوها الجبان ، وانا الذي أجثم هنا على بعد خطوات من مثوى قدور .

انه يستريح قبالة خندقي ، تحت شجرة زيتون تمردت على الهرم والزمن فلم تنحن لهما الا لتحضن وليدة لها فتية ، بدأت تشمخ برأسها قوية متحدية كأنها انما ترمز الى امنا الجزائر التي تواجه الشمس بكل ماقد يمكن لشعب ان يدخر في اعصابه من طاقات الصمود ، وافاعيل الثقة بالذات .

اتخيلك تضغط صدغيك بحنق كعادتك حين يستبد بك الضيق ، محاولا ان تزعق في وجهي :

ـ وكيف مات قدور ؟ وكيف سمحتم له ان يموت ؟

نحن ـ ياصاحبي ـ لم نسمح له ان يموت . بل شاء هو ان يكون اسطورة من التشوف الابي ، تلهب بالنخوة والفداء كل نفس جزائرية .

كنا نتناول طعام الغداء . وكان هو يؤدي وصلته الساخرة تعادته كلما اجتمع شمل الرفاق .

وكان موضوع سخريته في تلك الظهيرة ، خط موريس المكهرب ، الذي اقامه العدو ليحول دون تسلل رفاقنا الى التراب التونسي .

... واستهل قدور وصلته فقال بلهجة مسرحية :«لقد استنجدت باريس بكل مافي رؤوس ثيرانها الكبار من سخف وسكر ونزق ، وعصرت كل مافي ادمغة « عبقرياتها» العسكرية من موهبة التفاهه ، فكان لها خط موريس »

وعندما تحقق الخط العظيم وقفت الشمطاء امامه تفرك راحتيها بفرحة الاطمئنان : لقد انتهى الامر . لم يعد بامكان الخارجين على القانون ... ان يخرجوا ... ولم يعد بامكان العصاة ان يفلتوا من قبضة العدالة .

وكاد قوادها العظام يشربون سلفا ، نخب النصر القريب بقبعاتهم المزركشة ، ويتبادلون التهاني لانتهاء « حرب التهدئة » ... لولا ان استفاقوا صباح اليوم الثاني على مفاجأة صاعقة ، فلقد اخترق مهابة الخط العجيب ، ومزق حرمته الغالية قطيع من ثيران الجزائر ـ لاتضحكوا ـ الثيران الحقيقية ، فأضاع على فرنسا فرصة النصر التي هيأها لها ثيرانها العسكريون الكبار ، بعد جهد جبار ، وليال من السهر والجد طوال .. .»

... وتوقف قدور قليلا ،وراح يداعب لحيته السوداء المدببة ببلاهة مصطنعة ريثما تنتهي نوبة الضحك التي عصفت بالرفاق ، ولكن ساعي الجبهة ، مر به في تلك اللحظة والقى بين يديه رسالة تلطخت اطرافها بالوحل ، حتى بدت كأنها انما تشي لصاحبها بكل مالاقته ، في طريقها اليه ، من عناء الضياع ، وشعث الترحال .

... ومال قدور على الرسالة يفضها متعجلا ، وما كادت عيناه تحتضنان سطورها الاولى حتى بدا جبينه يتغضن ، وملامحه الباسمة تربد ، واطرافه القوية تتراخى .

وتسمر الرفاق وهم يرونه يبكي فجأة ، ولاول مرة منذ عرفوه ، وعجبوا له ينسحب ، وهو يعصر الرسالة بقبضته ويردد بانفعال وعصبية :

ـ يالهـــم مـــن انـــذال !

. . .وعرفنا سر الرسالة .

. . كانت من اخيه الاصغر الذي تركه في القرية سندا لامه العجوز ، فاستطاع السند الطري العود ، ان يسـد حاجة الشيخة الى الرعاية ، وان يخفف عليها هلع الامومة التي نثرت ببدها في بقاع ثلاث من ارض الجزائر ، فكان لها فذة في أوراس ، واخرى في وهران ، وثالثة على الحدود . . . . ولكن السند الطري العود ، لم يستطع ، بل لم يتح له على الاصح ، ان يحمي حرمة الشيخوخة من غـــدر الانـــذال .

فني اول العام الجديد راق لجنود المظلات ان يعيـدوا فزحفت ثلة منهم ، على قرية « ..... » فطوقتها ، واطلقت زبانيتها في جنبات القرية الامنة العزلاء في حملة تمدينية ، وكانت امه . . . امه العجوز ، هدفا من اهـداف هذه الحملة .

اقتحم عليها غرفتها عند الفجر ، خمسة منهم ، وهـــي

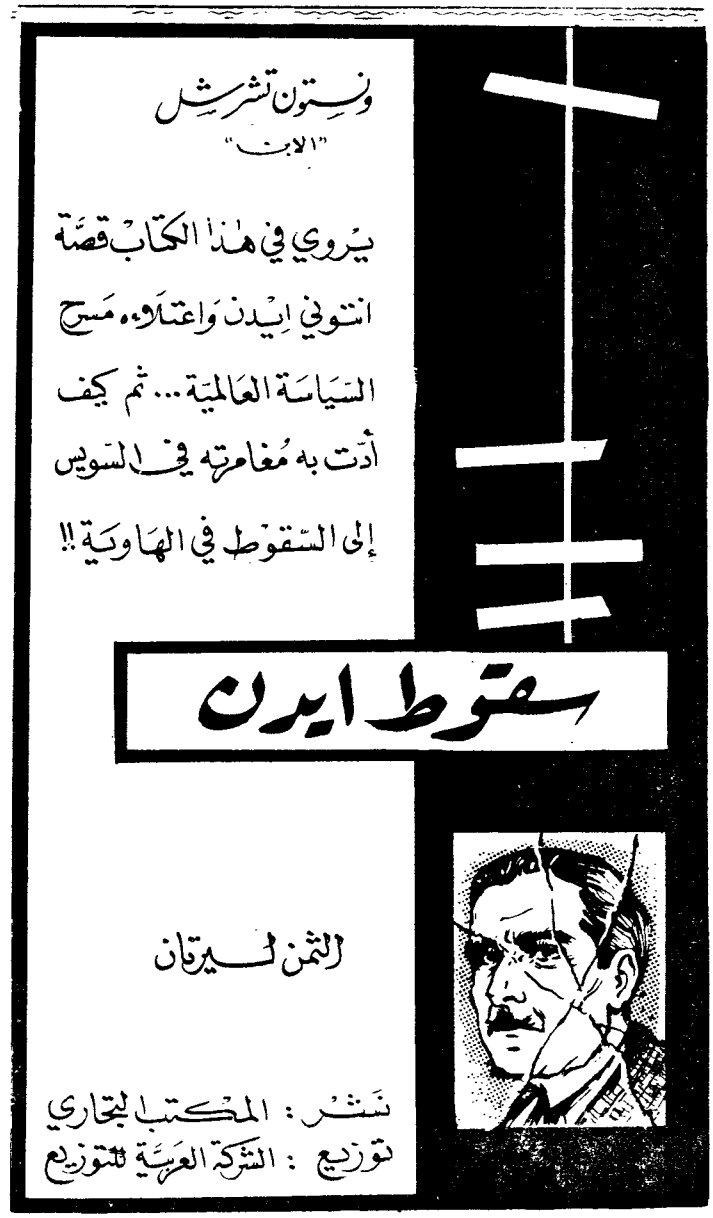

تصلي ، فظلت راكعة تدعو للجزائر بالنصر ، وتستنزل على اعدائها اللعنة حتى اذا انهت صلاتها ، تلفتت اليهم بازدراء وسألتهم مدا يريدون ، فاشار قائدهم الى ثلاث صـــور معلقة في الجدار ، لشبان ثلاثة يرتدون لباس الميدان :

ـ مـــن هـــؤلاء ؟

ـ انهـــم ابنائي .

ـ و ين هـــم الان ؟

ـ يحاربونكم فـي كـل مكـان من ارض الجزائر .

ـ نعم انهم يحاربوننا . . ولكن اين هم الان بالضبط ؟

ـ و حد في أوراس ، واخر على الحدود ، وثالث فـــي وهـــران .

ـ وتفخرين بهـم ايضـا ياشمطـــاء ؟

ـ وددت لـو انهم عشرة ، بل مئة ، بل الف ، لاقدمهـــم جميعـا فـداء للجـزائر .

. . . ولم تتحمل اعصاب الوحوش هذا التحدي ، فجروها الى الخارج ، الى شجرة التوت العتيقة في فسحة الـدار ، وعلقوها من شعرها في احد الاغصان ، وظلوا يعذبونهـا ، وهي تقابل تعذيبهم ببسمة التحدي اياها ، حتى اذا افتحت شمس الصباح عينها الواسعة ، فتحتها على الوجه الجليل باردا مهشما ، وعلى الشعر لابيض الوقور مجبولا بالدم .

ولم تكن امه وحدها حصيلة الحملة في ذلك النهار ، فلقد ترك المدنون وراءهم عند انسحابهم اكثر من ثلاثين جثة لطفل وامرأة ، اما اخوه الفتى ، فقد نجا ، لانه كان قـــد انطلق قبيل ساعات ، الى الغابة القريبة ، حاملا الى بعـض الفدائيين ماجمعته لهم القرية الفقيرة من زاد ومال .

. . . وقلبت الرسالة الحزينة حياة قدور .

افتقدته مجالس الرح التي كان الرفاق يختلسونها كلما هادنتهم المخاطر ، ونهدوا الى بعض الراحة استعدادا لاعراس الفداء ، واشتاقت الحلقات الى تعليقاته الساخرة عـلى تحركات العدو ، وخبطانه الفاشلة ، ولم تعد البسمة الـى ملامحه ، بل طردها عن هذه الملامح ظل متجهم صارم ، يفيض بالوان الصمت والاسى والضراوة .

وكثيرا ماكنت افاجئه ، حين يخلو لنفسه ، فأجده منكبا على ورقة ، وفي يده قلم رصاصي لاينفك يجريه عليهـــا بلفظتين فقط « فرقة المظلات » ، يكتبها عشرات المرات حتى اذا لم يعد في الورقة متسع للفظتين المقيتتين ، مزقها بعصبية وداسها بقدمه ، واستدار نحوي يسألني :

ـ اما من اوامر بهجوم ما ياسعدون ؟

. . . وجاءتنا الاوامر ذات مساء ، وهي تقضي بشـــن غارة خاطفة على قافلة عسكرية كانت تمر على بعد عشرين ميلا من مراكزنا ، وهي في طريقها لنجدة احدى فـــرق العدو المحاصرة عند اطراف الجبال القريبة ، وكان علينا ان نتعجل الضربة ، قبل ان تصل القافلة الى « كولون بيشار » التي تعتبر مركزا من مراكز العدو التموينية الحصينـــة ، فجمعت الرفاق وامرتهم ان يكونوا على استعداد لمهمة عاجلة وفيما كانوا يتفرقون لاعداد « لوازم » المهمة ، دنا قدور مني

وهز كتفي بشيء من الاستبشار والفرحة :

ـ قل لي بربك هل سنهاجم احدى مستعمراتهم ؟

ـ ليس في الاوامر شيء من ذلك ، ولكن هناك نجدة عدوة ، علينا ان ندمرها ، او على الاقل ان نعيقها عن الوصول الى هدفها .

ـ ولن يسمح لنا بمواجهة المدنيين منهم في الدسكرة القريبة ؟

ـ الاوامر هي الاوامر .

... ولمعت عينا قدور ، فخيل الي ان رجما من لشهب يتساقط منهما ، ثم طأطأ رأسه وسار الى خيمته وئيدا تحت ضوء القمر الشاحب الذي كان يطلع علينا انذاك من وراء غابة الزيتون بوجهه الصافي الاسيان ، وصمته الازلي الحالم .

... وعند الرابعة صباحا ، كان صمت العدم الذي يعقب العاصفة العاتية قد خيم على وادي « جعفرة » وكانت قافلة العدو ركاما خامد يتناثر في جنبات الوادي ، وكنت اتفقد الرفاق استعدادا للانسحاب الى مراكزنا ، فهالني الا أرى « قدور » بينهم ، رغم أنه كان طوال اللقاء الدامي كنيزك عجيب ، ينقض على اهدافه فيحرقها ويدمرها ويرتد بسرعة دون أن يحترق هو او يتدمر .

... وراودني في بادىء الامر احتمال بان رفيقنا قد لاقى نهايته ، ولكن الجولة التفتيشية الدقيقة التي قام بها الرفاق في حقل المعركة الضيق ، بددت كل ظل لهذا الاحتمال الاسود .

اذا اين اختفى قدور ؟ اتراه وقع في الاسر ؟ ولكن ... في اسر من ؟ وقد كان هجومنا مفاجئا لحامية القافلة بحيث استطعنا ان نبيدها ابادة كاملة دون ان نخسر احدا من رجالنا :

...وعدنا الى مراكزنا وألوساس تنهش رأسي وتركل اضلاعي بقسوة ، فسيرت الدوريات في كل اتجاه لترقب وتستقصي ، وقبعت انا على تلة صغيرة اجول السفوح الساكنة بمنظاري العسكري ، الى ان كان الاصيل ، فهممت بالنهوض وقد عصبت قلبي وعيني غمامة سوداء من اليأس ولكنني ماكدت احرك قدمي ، حتى لاح لي شبح قدور وهو يتوقل السفح باتجاه خنادقنا .

ولم يلق التحية علي ، عندما حاذاني ، بل بادرني معتذرا :

ـ اسف . لقد كان من حقك علي وحق الانضباط ان استأذنك ولكنني لم افعل لانني كنت واثقا انك لن تسمح .

ـ لن اسمح بماذا ؟

وابتسم بمرارة :

ـ ان اقوم بزيارة خاطفة لكولون بيشار :

ـ ايها المجنون ... كيف تجرؤ على ذلك ؟

وهز كتفه بلا مبالاة ، ووضع يده على خنجره :

ـ لايد لي في الامر ياسعدون . لقد ظمىء هذا الى دم الانذال فأحببت ان ارويه .

ـ وهل اشبعت ظمأة ايها المجنون ؟

ـ اجل . لقد نهل من دم خمسة . خمسة من حراس المستعمرة ، اقتحمت عليهم خندقهم وهم نيام ...

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك . شعرت انه مازال يشكو الظمأ ، فتسللت الى بيت في اطراف المستعمرة لاشبعه ريا ، ولكنني لم اعثر في المنزل الخلوى الا على عجوز فانية ..

وسألته بتعنيف :

ـ وهل انتقمت منها لامك ؟

ـ صدقني ، لقد حاولت ، ولكنها توسلت الي الا افعل . قالت لي : بأي ذنب تقتلني ؟ فقلت لها : .. .وبأي ذنب قتلوا امي ؟ فبدا الاستسلام في نظراتها ، وجثت عندقدمي تنتظر قدرها بقنوط ، ولكن خنجري جمد في قبضتي ، عندما انزلقت عيناي على شعرها الابيض ، فأنهضتها ، ولم اتمالك نفسي ، فدفنت رأسي في صدرها ، ورحت انحب وأسألها بضراوة :

منشورات : المكتب التجاري ـ توزيع : الشركة العربية للتوزيع ـ بيروت

ـ قولي كيف تجرأ الانذال ان يقتلوها ؟ كيف ؟

فرفعت عينيها المبللتين بالدموع ، واومأت بهما الى صورة في الجـــدار :

ـ ليحفظك الله انت وهـــو ؟

ـ ومـــن هـــــو ؟

ـ بـــول ... وجيـــدي .

ـ وايـــن هـــو الان ؟

ـ في خندق من هذه الخندق القذرة التي يتوهمـــون انهم يحمون بها كولون بيشار . لقد اختطفه الجزارون مني ليعلموه السفك والحقد والجريمة .

... وسرت في بدني رعشة عجيبة ، فانسحبت من بيت العجوز ، وانا ارنو الى خنجري بطرف عيني .

من يدري ... من يدري ياسعدون .. فقد يكون بول وحيدها ، احد الخمسة الذين نهل من دمهم هذا الخنجر ؟

... ولم تطفىء مغامرة « كولون بيشار » النار في قلب قدور . فقد ظل يتحرق الى لقاء ادسم ... واللقاء الادسم ـ حسب تعبيره ـ هو اللقاء مع فرقة المظلات بالذات .

وكان الامس موعد هذا اللقاء الذي لم نفاجأ به ، لاننـــا في الواقع ، كنا نترقبه ، فلقد كنا نعلم ان قيادة العـــدو الحمقاء ، سترسل لنا حملة تطهيرية ، كما تعودت ان تسمي حملاتها ، لتثأر لعنجهيتها الجريحة ، وهيبتها العسكريـــة التي انتهكناها ، منذ ايام ، في وادي « جعفرة » . وقـــد علمتنا التجارب ان قيادة العدو ، لابد ان تلجأ الى فرقـــة المظلات ، حين تحتاج الى ان تعبر عن عميق تأثرها لهزيمة نكراء حلت بها ، لان هذه الفرقة وحدها هي التي تستطيع ان تلعب دورها الوحشي بنجاح يؤهلها لان تكون اداة العدو البطاشة ، ووسيلته الارهابية الاولى .

... وعند الفجر كانت طلائعهم تتسلق السفح نحـــو خنادقنا ، وكانت بنادقنا ترقبهم من بين الصخور وهـــم يزحفون ، فيبهرها الصيد الاحمق الذي يسعى ببلاهـــة الى جعبة الصياد .

... وكان قدور اكثرنا سعادة بوفرة الصيد ، لذلـــك كان يتعجل لحظة السفر ، ويحاول ان يثب من خندقه ولكنني كنت اثنيه بان اشده من ذراعه ، وأهمس فـــي اذنه بحزم ان يهدأ . فبراعة الخطة تقضي ان نوهم الطلائع الزاحفة ان طريقها خواء ، وان هدفها الذي تسعى اليه بعيد

وبالفعل اغرى الصمت المفتعل جنود المظلات واستدرجهم حتى اذا حاذوا خنادقنا المخبوءة اندلق عليهم اللهب مـــن كل مكان ، من خطوطنا الثابتة والمتينة ، وبدأت حلقـــة نيراننا تضيق حولهم وتشد عليهم الخناق ، فتوقع فـــي صفوفهم البلبلة والاضطراب ، وتكرههم على التماس سبل الخلاص ولا خـــلاص .

في هذه اللحظات المتوترة الرهيبة افتقدت « قدور » فاذا به قد وثب من الخندق ، وانطلق كالصاعقة المجنونة يتعقب جنود المظلات : يعاجل القريب منهم اليه بضربة خنجر او حربة ، اما من كان بعيدا عن متناول زنده ، فرصاصه كفيل بان يطاله فيرديه .

... وخشيت على قدور ان يصرعه رصاصنا ، واثرت ضنا به ، ان نتيح لفلول المهاجمين حظ الانسحاب ، فأمرت بالكف عن الاطلاق الكثيف والاكتفاء بالقذف الهادف ، وصحت بـــه مـــن خندقـــي :

ـ عد الى خندقك ياقدور . اني امرك ان تعود .

... وتلكأ قليلا في اطاعة الامر ، رغم ماعهد فيه مـــن مناقبية الانضباط ، وراح ينكفىء نحونا ببطء ، وهو يلاحق برصاصه الحاقد ، الاشباح المروعة التي كانت تعدو منهزمة باتجاه الافق البعيد لحاني على كولون بيشار .

وعند ماصار على مئات الامتار من خنادقنا بدا لي انـــه ليس على مايرام وانه يسير مترنحا ، فقفزت من حفرتي وعدوت نحوه ولكنني ماكدت اصبح على خطوات منه حتى انهار وسقط الى الارض يحتضنها بكلتا ذراعيه .

ومددت يدي الى صدره اسد جرحه بهلع ، فرنا الـــي بعينيه السوداوين وراح يوزع بسمته الراضية الاسيانة بيني وبين رشاشه الحبيب المنطرح عند قدميه كالكلـــب الوفي ، وظلت هذه البسمة تروي لي بصمت ، ملاحـــم بطولته الى ان انطفأت الجذوة في عينيه ، وجمد على انامله دمه الشهيد :

ما اتفهني يازياد : هل قلت لك ان قدور قد مات ؟

وكيف يموت من تنكس مئات البنادق رؤوسها امـــام حفرته لتقسم له بصمت وخشوع انها ستثأر لدمه وانهـــا لن تنسى ابدا ذكراه ؟

ان قدور لم يمت ياصاحبي . لقد غرسناه في ظل شجرة زيتون ، غرسناه على سفح اخضر من سفوح الجزائر . غرسناه في التربة الوفية التي تعودت ان تنبت الحب والبقل والامل والفداء ، ونحن واثقون ان هذه الارض الطيبة الخيرة ستنبته عما قريب ، حرية تدحر الطغاة ، وفجرا يمـــزق اوصال الليل ، وسجف الظلام .

بيـــروت — احمد سويد

دار الوعي العربي بدمشق تقدم

سعد صائب

في كتابه الجديد

شاعر معاصر

اول دراسة تحليلية دقيقة وعميقة لديواني « كانت لنا ايام »

و « الليل في الدروب » للشاعر الدكتور عمر النصر

مع نماذج شعرية مختارة من الديوانين

يطلب من جميع المكتبات ، ومن دار الوعي العربي بدمشق